مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 14 ع 01.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

الأمير عبد القادر الجزائري في الخطاب الإعلامي مقاربة ثقافية

El Emir Abdelkader El Jazairi in the Media Discourse A Cultural Approach

نجاة بوقزولة Nadjet Boukezzoula * n.boukezzoula@univ-boumerdes.dz	أدب عربي	جامعة امحمّد بوقرة بومرداس / الجزائر
DOI : 10.46315/1714-014-001-028		ORCID:

الإرسال: 2024/02/29 **القبول**: 2024/08/14 **النشر**: 2025/01/16

**

ملخص:

نروم في هذه الورقة البحثية استقصاء التغطيّة الإعلامية لمواقف الأمير عبد القادر الجزائري كشخصية عالمية كانت فاعلة في عصرها ومتفاعلة معه، قصد معرفة كيفية تمثّل الخطاب الإعلامي له وأثر ذلك على الذّاكرة والهوّية، فالأمير معروف بمقاومته للوجود الكولونيالي ومواقفه الإنسانية ومشروعه النّهضوي، ومنذ بداية حربه ضدّ العدوان الفرنسي على الجزائر وإلى يومنا هذا شكّل الأمير موضوعا للعديد من المقالات في الصّحف والمجلّات العربية والعالمية كجريدة بانش والدّايلي نيوز الإنجليزيتين والتّايمز الأمريكية هذه الأخيرة التي خصّته لوحدها بما ينيف عن خمسين مقالا، وما يزال الأمير يستقطب العديد من المنابر الإعلامية المعروفة كقناة الجزيرة العربية مثلا ...وقد انتقينا بعضا من هذه الخطابات الإعلامية موضوعا للمقاربة، كما توسّلنا في هذا المسعى العلمي بآليات النّقد الثّقافي بما يوفّره للباحث من أدوات للكشف عن مختلف الأنساق التي انطوت عليها هذه الخطابات.

كلمات مفتاحية: الأمير عبد القادر؛ الخطاب؛ المقاربة؛ الإعلام ؛ الثقافة.

Abstract:

This research paper aims to investigate the media coverage of the stances of El Emir Abdelkader El Jazairi as a global figure who was influential and interactive in his time, to identify how the media discourse represented this personality and its impact on memory and identity. El Emir is known for his resistance to colonial presence, his humanitarian positions and his renaissance project. Since the beginning of his war against the French aggression on Algeria until today, this national hero has been the subject of many articles in Arab and international newspapers and magazines such as the British Punch and Daily News, and the American Times, which alone devoted more than fifty articles to him. He still attracts many prominent media platforms such as Al Jazeera channel for example. We have selected some of these media discourses as a subject for analysis. In this scientific endeavor, we rely on the mechanisms of cultural criticism and the tools it provides to the researcher to reveal the different cultural frameworks embodied in these discourses.

Keywords : Amir Abdelkader; Discourse; Approach; Media; Culture.

**

* - الباحث المُرسل: n.boukezzoula@univ-boumerdes.dz

1- مقدمة:

يؤدي الإعلام دورا بالغا في نشر الأفكار والتّأثير في الرّأي العام، فهو وسيلة من وسائل نشر الثّقافة وتوعية الجماهير بما يموج به عصرها من أحداث وصراعات، كما أنّه منبر للتّعريف بالأطراف الفاعلة والمتفاعلة مع العصر، وهي الموجّه للرّأي العام بحسب طبيعة الخطابات التي تضمّنها هذا الإعلام، إذ يمكن أن تكون وسيلة لتحقيق حوار إيجابي وتفاعل بنّاء بين بني البشر، كما يمكن استغلالها كوسيلة للتحريض على الكراهية والحروب وخلق الصّراعات إذ «أنّ الأخذ والرّد والتحدّي والاستجابة، وفسح متنفسّات خطابيّة معيّنة وإغلاق أخرى، كلّ ذلك يشكلّ سياسة الكلمة التي يقوم كلّ طرف باعتمادها بإيجاد أوضاع، وتبرير أفعال وغلق خيارات وتوكيد بدائل، ومحاولة فرضها على الطّرف الآخر»(سعيد، إ، 2011، 18)، فالصّحافة ووكالات الأنباء والشبكات الإذاعية والتلفزيونية تقوم بعملية واعية لتقرير ما تعرضه وكيفية عرضه لأن الأخبار " هي نتيجة سيرورة معقدة من الاختيار والتعبير المعتمدة غالبا وليست مسلمات موضوعية(سعيد، إ، 2011، 139-140) وإذا كان الخطاب الإعلامي نتاج لمعان متعدّدة المجالات عبر مقاربات وتوجهات مختلفة تتجاوز البث الإخباري البحت، ليوجه رسائل يحاول من خلالها أن يؤثّر على المتلقّي إيديولوجيا، فقد سعينا في هذا البحث لمقاربة الخطاب الإعلامي- في مختلف وسائطه - الذي اتّخذ من شخصية الأمير موضوعا له، من ثم نتساءل كيف غطت وسائل الاعلام المختلفة مواقف الأمير التي اشتهر بها عبر مختلف مراحل حياته؟ سواء في عصره بما توفر من صحف ومجلات، أو في عصرنا الراهن الذي يموج فيه الخطاب الإعلامي بكثير من التحريض على العنف والتمييز العنصري؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة نقف عند نماذج إعلامية مختلفة .

2. الأمير في الخطاب الإعلامي في مرحلة الجهاد:

شغل الأمير حديث الصّحافة العالمية في عصره، فقد كان مثيرا للجدل لافتا للأنظار بمواقفه المتميّزة وأفعاله المؤثرة وبطولاته اللاّفتة، برغم ما مرّ به من ظروف ومحن وآلام وقد زاد ذلك من شهرته وذيوع صيته الكريم، فقد اتخذت منه العديد من الصّحف "والمجلات موضوعاً للمقالات المنشورة مثل: مجلة العالمين، ومذّكرة البرينيه، والموّجه، والجيش، وجيش أفريقية، كما خصته التايمز وحدها بنحو خمسين مقالا بين 1837 و1870"(ايتين، ب، 1997، 462). وكلّها أبدت إعجابها ببطولاته وشجاعته ونبل أخلاقه.

وعلى نهج الصحف الأمريكية -خاصة التايمز-، سارت الصّحافة الإنجليزية في تغطيتها لمرحلة الجهاد مشيدة ببطولات الأمير بإعجاب، فقد شجعته أثناء مقاومته وأشادت بسعيه من أجل تحرير وطنه، وحتى الصّحف المحافظة منها تناولت أخباره بلهجة معجبّة(شارك، ه، 1974، 9).

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

كما تولت بعض الصّحف الإنجليزية في ذلك العصر نشر الأشعار التي يكتبها عنه الشعراء الانجليز مثل ما قامت جريدة "بانش "التي نشرت قصيدة عنوانها" عبد القادر في طولون أو الصّقر السجين، تعاطفا معه أثناء سجنه، وانتصارا له ودفاعاً عن قضيته(شارك، ه، 1974، 9).

وهناك من الصحف الفرنسية التي شجعت الاستعمار والبقاء في الجزائر، لم تستطع إنكار بطولات الأمير وعبقريته الفذّه ونبوغه من بين معاصريه، فمن المفارقات التي تبعث على العجب قيام بعض الصحفيين الفرنسيين المناصرين للاستعمار بتمجيد الأمير في مقالاتهم وكتبهم، حيث كتب الصّحفي "لويس فانون" -صحافي الحملة الافريقية وصديق شخصي للجنرال بيجو -كتابا بعنوان: الفرنسيون في الجزائر اعترف فيه بأن الأمير :" من بين مواطنيه الأوّل في كل شيء، الفارس الأكثر مهارة والمقاتل الأكثر بسالة، والعالم الأوسع علماً، والسياسي الأكثر تبصرا، والواعظ الأكثر فصاحة، والمسلم الأكثر ورعاً، والمنظم الوحيد، لا أحد منه قدرة على إيقاظ الحميّة الدّينية.(AMAR b. 2007,p18) "

وعلى عكس من ذلك غطّت بعض الصّحف الفرنسيّة خبر انتهاء المقاومة بحماس طاغ من الفرح والانتصار فقد نشرت جريدة المونيتور Le moniteur في عددها الثالث من يناير سنة 1848م الخبر بهذه الصّيغة: «إنّ إخضاع عبد القادر هو حادث في غاية الأهميّة لفرنسا، إنّه يؤكّد طمأنينة احتلالنا، إنّه يسمح لنا أن نخفض من عدد الرّجال والنّقود التي كنّا نرسلها إلى إفريقية منذ سنوات طويلة، وهو يساهم، من هذه الحقيقة وحدها، في تدعيم قوّة فرنسا في أوروبا، ففرنسا تستطيع اليوم، إذا دعت الضرورة، أن تنقل المائة ألف رجل التي تستخدمها للاحتفاظ بالأهالي المقهورين تحت نيرها إلى مناطق أخرى»(شارك، ه، 1974، 238)؛ يحمل الخبر مشاعر الانتشاء بوقف الأمير للجهاد مما يمكن فرنسا من مواصلة توسّعها، فالخطاب الاعلامي هو في طبيعته تشجيع على الظّلم والعدوان ودعوة صريحة للبقاء في إفريقيا -بما فيها الجزائر -على حساب الشعوب المقهورة فهو خطاب في أقصى درجات العنف والتطرّف غير عابئ بالجهود التي بدلها الأمير من أجل حماية شعبه، ومنكر لحقيقة جهاد الأمير من أنّه في سبيل الدفاع عن الوطن ضدّ العدوان الكولونيالي، كما أنّه خطاب مغيّب لكلّ تلك المساعي وللمواقف الإنسانية للأمير الذي كان له فضل السّبق في سنّ حقوق الأسرى، كما أخفى هذا الخطاب الإعلامي جهود الأمير من أجل استتباب الأمن حين كان يبعث بخطابات تدعو إلى استمرار المعاهدة، فالخطاب الإعلامي الفرنسي الذي تناول الأمير كان خطابا كولونياليا مرّوجا لفكرة "الجزائر مستعمرة فرنسية" دون اعتبار للشعوب وحقها في نيل حرّيتها.

ومع ذلك فإنّ هنري تشرشل يرى في هذا الخبر اعترافا ضمنيّا "بعبقرية الأمير وسمّوه"(شارل، هـ، 1974، 250).، لأنّ هذا الخطاب الإعلامي يحمل في طيّاته الاعتراف بأنّ الأمير كان يهزّ بإقدامه وشجاعته عروش الملوك ويهدد استقرارها ويدفع بالاحتلال إلى إعادة حساباته .

كما ركّزت الصحافة الفرنسية والحزب الاستعماري في تلك المرحلة على قطع الطّريق على الأمير وروّجت لخطر السّماح للأمير بالذّهاب إلى مصر، "مخافة أن يتلقى دعم الانجليز ويعود من جديد للظهور""(ايتين، ب، 1997، 253).

لكن وبعد مرور وقت قصير من سجن الأمير ظلما، ومن خلال احتكاكه المباشر والحوارات التي قام بها مع العديد من الشخصيات الفرنسية أثناء تواجده في السّجن، أيقض الحسّ الإنساني لدى هذا الغرب وانعكس ذلك على الخطاب الإعلامي الذي بدأ يتفاعل شيئا فشيئا مع الأمير كبطل جزائري حارب من أجل ردّ العدوان عن وطنه، وكشخصية مثقفة عالمة؛ شخصية تعرف الكثير وتملك مخزونا معرفيا استقاه من مرجعيته الدّينية، حيث اعترف هذا الخطاب بمزايا الأمير حين عاين حقيقته، خاصّة وأنّه كان " يوجد في فرنسا حزب قويّ مناصر للأمير عبد القادر يتألف أساسا من قدماء أسراه ومن ضبّاط قدماء في جيش أفريقية أعجبوا ببطولات الأمير واعترفوا بنبل أخلاقه، فظهرت كاستجابة تلقائية لهذا الاتجاه " حملة صحفية" حديثة جدا تنادي بالانتصار للأمير وإطلاق صراحه، فقد كتبت صحيفة مذّكرة البيرينه Le memorial de pyrenees ردّا على عزوف لامورسير عندما تقلّد منصب وزير الخارجية عن منح الأمير حرّيته وهو الجنرال نفسه الذي عقد معه الأمير معاهدته الأخيرة القاضية بوقف القتال، على أن يتم ترحيله إلى مكة أو الاسكندرية، كتبت الصحيفة :" إنّ التاريخ الذي استهجن سلوك انجلترا الخسيس اتجاه نابوليون سيجد العبارات المناسبة في قسوتها ليصف نقضنا للمعاهدات""(ايتين، ب، 1997، 262).

غير أن اللاّفت هو أن هذه الخطابات الإعلامية ليست معارضة للمشروع الكولونيالي برمتّه، فقد شجّعت على الوجود الفرنسي في الجزائر، وفي المقابل قصّرت في التعريف والتنويه بحقّ الشّعب الجزائري في الحرّية -وهو هاجس الأمير- كما سكتت عن سبب الحرب التي خاضها والتي انتهت بوقف إنساني للقتال خوفا من الإبادة الجماعية التي شنّتها فرنسا ضد الجزائريين العزّل وحملة الأرض المحروقة التي طالت المدنيين وأتت على الأخضر واليابس

كما قصّرت في التعريف والتنويه بمساعي الأمير الإنسانية، أثناء الحرب، ومراعاته لحقوق الأسرى، واكتفت " الصحافة الفرنسية المحليّة بمدح الأمير والثناء عليه.....وأظهرته رسوم أبينال بطلا محبوبا أمام أعين الفرنسيين وأثيرا حتى على البارسيين""(ايتين، ب، 1997، 264).

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

عطفا على ما سبق كان الخطاب الإعلامي الفرنسي في هذه المرحلة، مشاركا في إخفاء الكثير من الحقائق على الرأي العام الفرنسي ومتواطئا مع الساسّة في فرنسا الذين "لم يوافقوا أبدا في جميع مراحل الاحتلال الاستعماري، أن يكشفوا للرأي العام عن سلوك عبد القادر، سواء كان ذلك في علاقاته الحربية أم في معاملاته الدبلوماسية مع أعدائه الفرنسيين .AMAR b) 2007,p180).

فبقيت تلك التغطية وتلك الأخبار عن الأمير، لا تحدّث عن حقيقة ولا تقدّم شيئا عن مشروعه الحضاري، ولا عن أخلاقه أثناء الحرب ؛كسنّه لقوانين استخلصها من الشريعة الإسلامية من أجل حماية حقوق الأسرى، كما لم يبرز الخطاب الإعلامي جهوده من أجل عقد معاهدات من تبادل الأسرى ولا عن طلب افتدائهم، وأنّ الأمير لم يكن يكره أسراه على اعتناق الدّين الاسلامي وأنّه كان مناهضا لظلم الإنسان لأخيه الإنسان واغتصاب أرضه ومصادرة حرّيته، وأنه كان قائدا مستنيرا يبني دولة حق، قائمة على قيم ومبادئ إسلامية يطمح فيها إلى مجتمع متماسك، ينبذ العنصرية ويتضامن مع بعضه البعض، مجتمع متحضّر لا يأنف من الاستعانة بالآخرين من أجل تطوير ذاته، فكلّ هذه الحقائق غيّبتها الصّحافة، بل إنّ هذا الخطاب الإعلامي غيّب عمدا مشروع الأمير الحضاري، تساوقا مع المشروع الكولونيالي والحملة الاستعمارية.

وإثر قرار نابليون إطلاق سراح الأمير، قامت جريدة المبشّر بنشر تعهّد قدّمه الأمير لنابليون الثالث يشكره فيه بعدم العودة إلى الجزائر، لكن الجريدة حين نشرت تعهد في عددها ليوم 30 من تشرين الثاني نوفمبر 1852، ركزت على فكرة أنّ الأمير أعلن الطاعة المطلقة لفرنسا(مهيبل، ا، 1994، 163-164)، وردّت هذه الجريدة أن الأمير تعهّد في رسالته تلك إلى نابليون الثالث بعدم حمل السّلاح مرّة أخرى ضد فرنسا، على ما يحمله هذا الخطاب الاعلامي من تشجيع على التوسّع والاحتلال، وهذا ما دحضه أبو القاسم سعد الله استنادا لوثائق تاريخية حيث ردّ على هذه المزاعم قائلا: " .....في حين لم يرد في تعهّد الأمير شيء بهذا المعنى، فما ورد لا يتعدى شكره لنابليون الثالث على تسريحه والتعهد له بحفظ العهد وعدم الرّجوع إلى الجزائر، حين قرّر الأمير ترك الأمور بيد الله الذي أمره بالجهاد فجاهد، ثمّ أوقفه فتوقف إذ المسألة كلّها قضاء وقدر، وعليه فإنّ وضعيته كمجاهد قد تحدّث مستقبلا إذا قدّر القدر ذلك"(سعد الله، أ، 1998، 536)، ونشرت جريدة المبشر لسان حال الإدارة الاستعمارية- النّاطق باسمها في الجزائر والموجّه إلى الأهالي – تفاصيل اللّقاء الذي حصل بين الأمير ونابليون الثالث إثر تلك الزّيارة؛ زيارة هذا الأخير للأمير في قصر أمبواز وجاء في المقال: "أنّ العمل الكبير

الذي قام به نابليون والمتمثل في إطلاق سراح الحاج عبد القادر ينمّ عن الكرم الوطني الذي عبّر عنه نابليون حيث أشفق على مصير الأمير السّابق."(مهيبل، ا، 1994، 64).

والملاحظ أنّ هذا الخطاب الإعلامي يضمر أنساقا سياسية ذات أبعاد كولونيالية، حيث أطلق اسم الحاجّ عبد القادر على الأمير بدلا من الأمير عبد القادر، لما للاسم الثّاني من دلالة وثيقة الصّلة بالجهاد رغبة في التّأثير على الجزائريين، وحملهم على تجنّب استعمال أيّ رموز ودلالات لها صلة بالتفاف الجزائريين، واتّحادهم لردّ عدوان الفرنسيين، ونظرا لأهمّية الخطاب الإعلامي في تغيير وجهات نظر الجماهير، وتكوين رؤاهم ومواقفهم اتّجاه القضايا الحاسمة في حياة المجتمعات، فإنّ هذا الخطاب الإعلامي كان موجّها، بحيث "حاول إظهار الأمير في صورة صديق لفرنسا مجرّدة إيّاه من لقب الجهاد الذي كان قد حمله في الجزائر واستمر يطلق عليه حتى وفاته(مهيبل، ا، 1994، 64).

ورغم الخطابات الصّحفية الكثيرة التي اهتمت بالأمير - سواء في مرحلة الجهاد أو عندما كان في السّجن - فإننا لم نجد خطابا واحدا ذكر حقيقة الجهاد الذي قام به الأمير وعدالة قضيّته، بل جلّ هذه الخطابات أخفت همجية الاحتلال وظلمه وعدوانه، واكتفت بالإشارة إلى عزلة الأمير عن الشّرق، وعدّته بطلاً يستحق أن توليه فرنسا عناية وتعطيه حقه في الحريّة وتفي بوعدها الذي قطعته وحسب. غير عابئة بمصير الجزائريين الذين يحاول الاحتلال إخضاعهم بل وإبادتهم، وهذا ما يقودنا للقول إنّ ذلك الخطاب الإعلامي الصادر عن تلك الصّحف يمكن أن يوصف بالانتكاسي المتردّي -وحسب تعبير إدوارد سعيد :«كأنّما إخضاع ملايين البشر لا يعدو كونه غير نشيد ريفي يبعث الرّضا والاطمئنان، وكأنّما تلك الأيّام هي فضلى أيّامهم، أمّا شعورهم الجريح (أي البشر)وتاريخهم المشوه وقدرهم التّعيس فلا اعتبار ولا وزن له طالما في مقدور هذا الاستعمار أن يستمر في الحصول على ما يفيده؛ مصادر قيّمة ومناطق استراتيجية جغرافيا وسياسيا ومجمّعا ضخما من الأيدي العاملة الوطنية الرخيصة»(سعيد، إ، 2011، 15).

فجاء الخطاب الإعلامي خطابا انتكاسيا يشجع على الاستيطان والكراهية ويفوح برائحة العنف والاستكبار والتمييز العنصري.

3. الأمير في الخطاب الإعلامي بعد فتنة الشّام:

لقد بدأت التغطية الإعلامية في الصّحف الغربية للأمير في هذه المرحلة بتقديم صورة أخرى للأمير ؛وعدّته شخصية محورية حاسمة في الشرق أريدها أن تؤدّي دورا فاعلا وحاسما في قلب موازين القوى لصالح الغرب في المنطقة، بهدف الحفاظ على المصالح الاستراتيجية له، سواء منها السياسية أو الاقتصادية.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

والحقيقة أنّ هذه الحملة الصّحفية قد تأثرت بما فعله الأمير بمواقفه الإنسانية والشجاعة في حادثة الستين فقد ذكرت جريدة "مندا بلوسنمري "الفرنسية في رابع أغسطس(أوت) سنة ستين وثمانمائة تحت عنوان " عبد القادر أمير معسكر سابقا "::«أن حوادث سوريّة المحزنة قد أظهرت للوجود اسماً محجوباً بغياهب الغربة وهو ذلك الاسم الذي طالما كوّرته ألسنة الأمّة الفرنسية بالرّجفة والاضطراب هو ذلك الاسم المرسوم بأحرف دمويّة من شاطئ نهر شلف رمال الصّحراء في الجزائر.. وبذلك انكشف عن مزاياه الحجاب الذي كان ساتراً لها وغدونا جميعا نتبارك باسم عبد القادر وهو الذي اقتحم الأخطار لأجل أولئك المساكين... ثم جمعهم في قصره، وأفاض عليهم من سجال كرمه وبرّه... وعلى كلّ حال فنحن نبذل الجهد في أداء الشّكر للأمير على ما أظهر من العناية في حق المسيحيين ..»(محمد، ال، 1930، 111-112)، من خلال التمعّن في هذا الخطاب، يلحظ تحوّلا في الخطاب الإعلامي الفرنسي الذي خصّ به الأمير بعد موقفه من نصارى الشّام في دمشق، إذ لم يكتف هذا الخطاب بسيرة الأمير البطولية، ولا الحديث عما كان يثيره ذكر اسمه من رعب وخوف عند جنرالات فرنسا، بل تحدّث عن الجانب الذي سعى الاحتلال قبل تلك الحوادث لتغييبه وسايرته الصحف في ذلك والخطاب طويل نوعا ما، ركّز فيه كاتبه-إلى جانب ما أوردناه – على إظهار شجاعة الأمير وبطولاته سواء في الجزائر حين كان يجاهد ضد الفرنسيين أو في دمشق حين حمى أهل الذمّة مؤكّدا أنّ كرم أخلاقه ولطف جانبه يمنعانه من إلحاق الأذى، ثمّ أورد رسالة للأمير يفنّد فيها التّهم التي نسبها أعداؤه إليه .

وإذا ما علمنا أنّ الأهداف التي تنشدها الصّحافة مثل الموضوعية والتزام الحقائق والتغطية الواقعية والدّقة هي مصطلحات بالغة النّسبية، وهي قد تعبّر عن النّوايا لاعن أهداف ممكنة التحقيق(سعيد، إ، 2011، 139)، فإنّ بعض التّغطية الإعلامية لهذا الموقف قد قدّمت تفسيرات تفتقدّ إلى الدقة والواقعية وجاءت خطاباتها متحيّزة للمدّ الكولونيالي والرّغبة المحمومة عند الغرب في التوسّع والسّيطرة على الشّرق، فقد نشرت صحيفة فرنسية وهي تبدي إعجابها وامتنانها لموقف الأمير وانقاذه لنصارى الشام نشرت الخبر يصوّر الأمير عبد القادر ؛ أنه شخصية قد تحوّلت في قناعتها وأفعالها عمّا كانت عليه في حربها للفرنسيين، وهي صورة لا تنم عن فهم حقيقي لخلفيات الأمير مواقفه ورسالته بقدر ما تنمّ عن أمانة الصّحفي الذي كتب الخبر في التعبير عن مناصرته للاحتلال الفرنسي للجزائر وبقائه فيها إذ جاء في الخبر «يوجد في ذات عبد القادر شخصان أحدهما أمير الجزائر والعدّو المخيف للفرنسيين من ثلاثين وثمانمائة إلى سبع وأربعين، والثاني الأمير الموجود الآن في سوريّة المخلّص لألوف من

النفوس في حادثة دمشق المهولة سنة ستين، فالأمير هو الرّجل الوحيد الذي ظهر في مكانين بعيدين بصورتين مختلفتين وأمسى الفرنسيّون مدينون له بدين هم مجبورون على أدائه له، الأمير عبد القادر هو ذلك الرّجل الباسل الذي أبدى أمورا وأعمالا لم يكن أحد يتصوّرها، ولذلك كانت جديرة بأن تدوّن في أجمل تواريخ العالم وآخر ما نقول أنّ عدوّنا القديم في الجزائر قد جعله الله الآن سببا لإنقاذ المسيحيين في الشّام»(محمد، ال، 1930، 114).

إنّ دور الأمير في إخماد فتنة الستين، قد جعل من الصّحافة الغربية تنادي بتنصيب الأمير سلطانا عربيا فقد نشرت صحفية ديلي نيوز Daily neus الإنجليزية اقتراحا بتنصيب الأمير عبد القادر على رأس حكومة سورية بدون تردّد واعتبرت أنّ ذلك سيكون بلا شك حلاّ للمسألة الشّرقية(مهيبل، ا، 1971، 22-23)، لكن الأمير كان يرفض أن يقيّده أي التزام محكوم بمصالح استعمارية وهو القائل :« لو وضعت جميع كنوز الأرض تحت قدّميّ، ولو أمكن جمع كلّ كنوز الأرض ووضعها في أذيال برنسي، وخيّرت بينها وبين حرّيتي لاخترت حرّيتي»"(ايتين، ب، 1997، 266)، وقد كان جواب الأمير واضحاً حول مشروع إقامة مملكة عربية يكون سلطانا عليها «لا أطمح إلى سلطان على البشر أو إلى مجد في الدّنيا، أريد أن أعيش من الآن فصاعداً في طمأنينة الهناء العائلي والصّلاة والسّلام»"(ايتين، ب، 1997، 327.)

هكذا جاءت جلّ الخطابات الإعلامية الغربية عقب حادثة السّتين ترى في الأمير عبد القادر شخصية محورية يمكن استغلال صيتها لأهداف استعمارية بحتة وحماية مصالح الدّول المستعمرة، لكنّ الأمير عبد القادر كانت مواقفه ثابته أنّه يرفض أي توسّع استعماري، وأوضح للجميع أنّ ما قام به من حماية لأهل الذمّة إنّما استجابة لما ألزمه به الدّين الإسلامي الذي شدّد على احترام أهل الذمّة .

كما جاءت الخطابات الإعلامية التي سلّطت الضّوء على موقف الأمير من فتح السّويس ومشاركته في افتتاحها في سياق التّشجيع على المد الكولونيالي، حيث استغلت الصّحافة هذا الأمر أيضا في التشجيع على السياسة الاستعمارية ومصالح الغرب الاقتصادية في الشرق، من ثم حصرت موقفه في أدوار ومفاهيم سياسية ضيقة وقصرت عن فهم وإبراز أبعادها الحضارية والإنسانية المتعالية عن تلك اللّحظة التاريخية.

فعندما بدأ مشروع قناة السويس، عبّرت صحيفة صديق الدّينL’ami de la religion ، ومجلة العالمينLa revue des deux monde ، وكذا صحف" بروغري دي ليون Progress de lyon، ولوكنستيو سيونال Le constitutionnet ولوكوربيه دو ديمانشن Le courier de dimancheعن أهداف المشروع بالترويج لفكرة أنّه لإقامة السّلام يجب خلق دولة عربية سورية تحت حماية فرنسا الإمبراطورية وبرئاسة الأمير الجزائري"(ايتين، ب، 1997، 309).

ومرّت السنوات تترى واشتد مرض الأمير وشاع في الأفاق خبرا كاذبا أن الأمير قد رحل إلى ربّه فنشرت صحيفة " لاليبرتا" الفرنسية في عددها بتاريخ 12 نوفمبر سنة 1879م خطابا ينعيه ويحدث عن بطولاته بكلّ موضوعية ويلخّص سيرته الحربية ضدّ الفرنسيين وممّا جاء فيه: «توفي الأمير عبد القادر في الشّام وهو ذلك الأمير ذو البطش والعظمة والاقتدار الذي حارب الدّولة الفرنساوية، مدافعاً عن بلاده الجزائر مدّة تفوت عن الخمس عشرة سنة، وهو فارس الأمّة العربية وإمامها التقي، الذي صادم جيوشنا وثبت أمامها وحده وجعلنا بوجوده لا نقتطف ثمرة افتتاحاتنا وغزواتنا فكأن تملّكنا في تلك البلاد كأنّه لم يكن ولم نحصل على السّلم، ولم نتوطدّ الرّاحة ....»(محمد، ال، 1930، 216-217)، ولكن حتى لو كانت كل كتابة في تلك الصّحافة لها مصلحة ما لاستخدام الأمير كقوّة ضغط لقلب الموازين، فليس معنى ذلك أن هذا الخطاب الإعلامي بلا طائل، بل العكس فإنّ فائدته أكبر من عدم جدواه، فهو وإن قصر في التّعبير عن عدالة قضية الأمير وعجز عن تبليغ رسالته أو فهمها حتى، فقد أسهم في تقديم الأمير للقارئ سواء في تلك المرحلة، أو المراحل اللّاحقة فقد سمحت للأجيال أن تبقى على اتصال به، مع أن تلك الصّورة نسبيّة وتقريبية تعكس وجهة نظر الجهة التي كتبت عنه وإذا كانت الخطابات الإعلامية الغربية قد شغلت بتمجيده، والتّرويج لفكرة أنّه حليف لها في غياب شبه تام لجهوده الفكريّة ومواقفه الدّاعية إلى نبذ الكراهية ورفض العدوان وحماية حقوق الانسان، كيف كانت صورة الأمير ونضاله وجهوده الفكرية والحضارية في الخطاب الإعلامي المعاصر(المرئي والمسموع)؟

4. الأمير عبد القادر في الخطاب الإعلامي المعاصر:

لعلّ أبرز المنابر الإعلامية التي أخذت من مشروع الأمير موضوعاً لها في عصرنا الحالي ؛ قناة الجزيرة الوثائقية، والتي تعدّ من أكثر القنوات العربية استقطابا للجماهير، حيث تم عرض فيلم وثائقي تحت عنوان :" الأمير عبد القادر"(الجزيرة، و، 2016)، واستغرقت مدّته ما ينيف عن ثمان وخمسين دقيقة، وقبل الحديث عن المضمون الذي أوصله البرنامج إلى المشاهد، نمرّ سريعا للحديث عن الإطار العام لهذا البرنامج، لما أدّاه من دور كبير في الاستقطاب والتأثير في المشاهدين، لقد تخلّل البرنامج مشاهد تمثيلية تقارب وتحاكي شخصية الأمير عبد القادر، وأفعالها وأقوالها إلى حدّ بعيد جدّا، بتقنيات عالية الدّقة لتتيح للجمهور التفاعل مع الفيلم بطريقة تكاد تلا مس الحقيقة، حيث يظهر الأمير(الشّخصية في الفيلم الوثائقي)، ماثلا بلباسه العربي البسيط متأمّلا سيفه حينا أو يعتلي صهوة جواده، مقتحماً صفوف الجيش الفرنسي، وما زاد من جودة المشاهد تلك الأمكنة التي شكلّت فضاء للفيلم والتي جال بنا البرنامج عبرها

سواء مكان ولادته بمعسكر أو أعالى الجبال والوديان التي كان يقطعها وهو يفاجئ العدّو في معسكراته، بالإضافة إلى قصر أمبواز الذي سجن فيه، وقد افتتح البرنامج بحديث معمّق عن السيرة الجهادية مركّزا على بطولاته والمعارك التي خاضها الأمير ضد الفرنسيين وكيف أذاقهم من ورائها وبال الهزائم النكراء .وقد وجّه هذا الخطاب الإعلامي أمرين أساسيين:

أولا: طبيعة البرنامج الوثائقية التي تنزع إلى استعادة التّاريخ وأحداثه كما حدثت في الواقع.

ثانيا: الخلفيات الفكرية للباحثين الذين خصّهم البرنامج للحديث عن بطولات الأمير العسكرية، والذين انبروا يدافعون عن تاريخنا المعاصر أمام ما لحقه من زيف خاصة تاريخ الأمير مثل قضيّة وقف القتال وغيرها، مظهرين بشاعة الاستعمار وجرائمه النّكراء في الجزائر، وقد اكتنف تلك الشهادات مرافعة ضدّ الوجود الكولونيالي، ودعوة لحمل فرنسا على الاعتراف بجرائمها الشّنعاء والإبادة الجماعية إبان الاحتلال في حق الأهالي العزّل.

على أهميّة هذه الجوانب من سيرة الأمير والتي أراد المتدخّلون في البرنامج، خاصة الجزائريين منهم إيصالها إلى العالم، فإنّه غاب في خضمّها ما حق للأمير أن يظهره البرنامج أيضا ؛ألا وهو رؤيته للجهاد، فقد أبانها الأمير من خلال تراثه الفكري، وكتبه التي خلّفها خاصّة المقراض الحادّ(الأمير، ع، 1989،)، وهو كتاب ألّفه في سجنه بأمبواز، ولم يوجد من بين ضيوف البرنامج من حدّث الجمهور عن ذلك، ولو أنّ البرنامج عرض لهذا المؤلّف للأمير الذي تحدّث فيه عن كنه وحقيقة هذه الشعيرة المقدّسة، لكان هناك تكامل رائع ومنطقي بين الشق الأوّل والثاني من الفيلم الوثائقي، ولما اضطّر معدّه في خاتمته إلى القول: « سيحمل الجزائريّون صورا متناقضة عن أميرهم لرجل فاوض وحارب سبعة عشر عاماً ضدّ أقوى جيش في عصره، ولكن أيضا لرجل يقول عنه بعض المؤرخين الفرنسيين أنّه استسلم » ولزال ذلك اللّبس الذي وقع في آخر الخطاب الإعلامي، وأثبتت حقيقة أنّ الأمير أوقف القتال ولم يستسلم، والفرق بين الأمرين شديد البون، ولبثّ في مسألة ماتزال تثير جدلا واسعا في أوساط المؤرخين.والمعلوم أنّ الأمير أوقف القتال وسلم سيفه ولكنه لم يسلم للفرنسيين بل أبرم معهم معاهدة تقضي بنقله وعائلته وكل من يرغب في مرافقته إلى مكة أو الإسكندرية وهذا الأمر لا يتعارض مع مبادئ الجهاد التي كان يؤمن بها الأمير بعدما اضطر إلى وقفه عندما رأى أنه يقاتل إخوانه في الدين(المغاربة)،وقضيّة الاستئمان التي حدّثنا عنها في كتابه المقراض الحادّ توضّح موقفه هذا.

والخلاصة التي نصل إليها أن هذا الخطاب الإعلامي المرئي قد أسهم ولو بجزء بسيط- بحكم الوقت المخصص له- في تسليط الضّوء على مواقف الأمير في عصره من أجل تحرير الوطن وتحقيق السّلام، وكذا رسالته الإنسانيّة ومراعاته لحقوق الأسرى ...إلخ .

وإذا كان البرنامج المعروض على قناة الجزيرة قد أغفل الحديث عن الرؤية الجهادية للأمير من خلال تراثه الفكري، فستفرد لهذا الموضوع بالذات حلقة كاملة من حلقات : منتدى الرومي"، الذي ناقش

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

عبر مستضيفه الكاتب جون كيسرJOHN.W.kiser رؤية الأمير للجهاد، هذا الكاتب الأمريكي الذي عرض لنشأته الدينية وتعلمه للقرآن الكريم وحاول أن يقارب مشكلات العصر من خلال الطروحات الفكرية للأمير عبد القادر مظهرا ما لثقافته الدينية الواسعة من دور في توجيه أفعاله مواقفه مسقطا ذلك على مفهوم " المسلم" و" الإسلام في حدّ ذاته"، وقد حمل هذا الخطاب الإعلامي ؛ دعوة للغرب من أجل إعادة صوغ رؤية صحيحة عن الإسلام والمسلمين، حيث أظهر الكاتب حماسا أثناء شرح الأفكار التي قام بها في كتابه بإعجاب شديد، فقد قارب شخصية المسلم من خلال شخصية الأمير يقول كيسر في البرنامج: " المسلم يحب عيسى، ويحب جميع الأنبياء ويحب مريم"، وينطوي هذا الخطاب الإعلامي الغربي على رؤية جديدة وغير معهودة للمسلم من قبل كاتب غربي، حين لفت انتباه المشاهد الغربي إلى أنّ الصّورة النمطية وتلك التعمية الإعلامية الغربية عن الإسلام ليست صحيحة، وأعلن صراحة أنّه أصبح يتمثل شخصيا بالأمير، ويتمنّى أن يكون مثله، مظهرا إعجابه الشّديد به ثمّ يخلص كيسر إلى نتيجة مفادها أنّ:" الأمير عبد القادر مهمّ ليس فقط بالنّسبة للمسلمين وحسب، ولكن أيضا لغير المسلمين إنّه يمثل نموذج المسلمين الذين تحتاج حكومتنا إلى التواصل معهم في أجزاء مختلفة من العالم، أعني ليس نوعاً من المسلمين الغربيين، ولكن المسلم المتجذّر بعمق في ثقافته، الملتزم بشدّة بإيمانه، ولكنّه في نفس الوقت منفتح عمليّا، ومهتم بالعالم الخارجي وهو بذلك يتفوّق على أقرانه في الشجاعة والسّلطة" .(JOHN, k,)

إنّ هذه التغطية الإعلامية لكتاب كيسر والتصريحات التي قدّمها عن الأمير، تدفع ولاشك بالغرب لإعادة ترتيب وصياغة مفاهيم جديدة عن الإسلام والمسلمين من خلال فهم تراث الأمير وكذلك إعادة مراجعة تلك العلاقة الصّدامية التي حكمت أمريكا بالعالم الإسلامي خاصة منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001، كما أنّ محاولة الغرب تحيين ذلك الإرث الحضاري للأمير ومقاربته من خلال إسقاطات واعية على راهننا اليوم، والبحث عن حلول لمشاكل عصرنا من خلال ذلك التراث الأميري لهو بحق المنهج القويم من أجل الاستفادة من تراثنا الحضاري لشخصيات مثلى عكست بحق الأبعاد الإنسانية للرسالة المحمدية ونحن أولى كجزائريين وكمسلمين بهذه المهمّة من غيرنا .

ويقودنا هذا الطّرح للقول إن الأمير ما يزال مقصد كثير من المهتمين والباحثين والإعلاميين الذين قرأوا عن هذه الشخصية الفذّة وأنّ بطولاته العسكرية قد استأثرت باهتمام الخطاب الإعلامي في الماضي كما في الحاضر وأنّ تلك الخطابات التي نظرت بموضوعية لحياة الأمير لابد فعلت فعلها وستبقى تحفر مجراها ببطء ولكن بعمق في ذاكرتنا وفي حياة الأجيال القادمة .

5- خاتمة

إن الخطاب الإعلامي قد اختلف في تناوله لهذه الشّخصية المثيرة للجدل حدّ التناقض سواء الخطاب المكتوب أو المرئي والمسموع وسواء في عصر الأمير أو في عصرنا الحاضر،

ففي حين تناولته بعض الصّحف بالإعجاب والإشادة ببطولاته، خاصة في سبيل الحريّة مثل التايمز الأمريكي، انتشت بعض الصّحف بهزيمته العسكرية مشجعة على التوسّع الاستعماري، وذهبت بعض الصّحف والمجلات أبعد من ذلك حين راهنت عليه داعية إلى استغلال هذا الصّيت من أجل مصالح استعمارية بحتة وراحت بعض الخطابات تروّج لأفكار خاطئة وتصوّره بطريقة منهزمة ذليلة منقادة ومستسلمة للآخر.

وفي العصر الحاضر مازال الأمير موضوعا للعديد من الخطابات الإعلامية وقد شدّدت بعض الخطابات الإعلامية المعاصرة العربية والغربية على أهمّية الأمير ونادت بإحياء تراثه وشجعت على الاهتمام بتاريخه وبطولاته لاستخلاص العبر .

**

6- المصادر والمراجع

1- إدوارد سعيد(2011)، تغطية الإسلام، كيف تتحكم وسائل الاعلام الغربي، تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم، تر: سميرة نعيم خوري،ط1، بيروت : دار الآداب.

2- برونوا ايتين(1997)، الأمير عبد القادر الجزائري، تر ميشيل خوري، ط1، بيروت، لبنان: دار عطية للنشر.

3- شارك هنري(1974)، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر.

4- اسما مهيبل(1994)، الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق نشاطه السياسي والفكري 1855م، ص 65، نقلا عن إبراهيم لونيسي: القضايا الوطنية في جريدة المبشّر(1847م-1870م) رسالة الماجستير، مخطوط، جامعة الجزائر، معهد التاريخ .

5- أبو القاسم سعد الله(1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، تاريخ الجزائري الثقافي، ط1، ج1، دار الغرب الإسلامي.

6- اسكندر بن يعقوب أبكاريوس(دت)، نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تح: عبد الكريم ابراهيم السّمك، لندان: رياش الرئيس للكتب والنّشر.

7- محمد بن عبد القادر الجزائري(1930)، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر -سيرته القلمية-، ج2، الإسكندرية : المطبعة لتجارية خرزوري وجويش.

8- الأمير عبد القادر الجزائري (دت)، المقراض الحاد لقطع لسان المنتفض من دين الإسلام، بالباطل والإلحاد الأكاديمية .

9- واسيني الأعرج(2004)، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد(رؤية)، ط1، الجزائر العاصمة: منشورات الفضاء الحرّ.

10- JOHN kisser(n.d), Emir- abdelvader fanatic or freedom fighter his relevance.

11- الموقع الالكتروني: https://www.aljazeera.net/news/politics/2020/11/16

12- الجزيرة الوثائقية :الامير عبد القادر بتاريخ 21 أكتوبر 2016الموقع الالكتروني https://www.youtube.com/watch?v=-DUb072x

13- الموقع الالكتروني https://www.youtube.com/watch?v=7LIJC276_qw